

المحاضرة التاسعة: جدلية العقل والفضيلة: دراسة استقصائية شاملة في الأخلاق القديمة
وتجلياتها في الفلسفة الإسلامية

(الجزء الأول)

علي كريم

مقدمة: المنعطف السقراطي وتأسيس العلم الأخلاقي

تُعد اللحظة السقراطية في تاريخ الفكر الإنساني نقطة تحول مفصلية نقلت الوعي الفلسفي من الانشغال بـ "الفيزيس (Physis)" أو الطبيعة الكونية وقوانينها المادية، إلى الانشغال بـ "الإيثوس (Ethos)" أو السلوك الإنساني وقيمه. لم يكن هذا التحول، الذي يُعرف اصطلاحاً بـ "المنعطف السقراطي"، مجرد تغيير في موضوع البحث، بل كان تأسيساً منهجية جديدة في التفكير تضع الإنسان، بوصفه كائناً عاقلاً وفعالاً أخلاقياً، في مركز الوجود¹. فبعد أن استنفد الفلاسفة الطبيعيون الأوائل (ما قبل السقراطيين) جهودهم في البحث عن "الأرخي" (المبدأ الأول) للكون المادي، جاء سقراط ليعلن أن "الحياة غير المختبرة لا تستحق العيش"، مؤكداً أن المعرفة الحقيقية هي معرفة الخير والشر، وأن الفضيلة هي العلم². في هذا السياق التأسيسي، برز العملاقان، أفلاطون وأرسطو، ليشيّدوا صرحين شاخنين في فلسفة الأخلاق، لا يزالان يلقيان بظلالهما الممتدة على الفكر الإنساني حتى اليوم. ورغم اشتراكهما في الإطار العام المتمثل في "أخلاق السعادة" (Eudaemonism) - حيث تُمثل السعادة الغاية القصوى للفعل البشري والفضيلة وسيلتها الضرورية - إلا أنهما اختلفا اختلافاً جذرياً في المنهج والمسار⁴. فأفلاطون، المحلق بأجنحة المثالية، ربط الأخلاق بنظام ميتافيزيقي متعالٍ، جعلاً من "مثال الخير" الشمس التي تستمد منها الفضائل نورها وحقيقتها⁶. أما أرسطو، المتجذر في الواقعية التجريبية، فقد أنزل الأخلاق

من سماء المثل إلى أرض الواقع البشري المعقد، باحثاً عن الفضيلة في "الوسط الذهبي" وفي الممارسة العملية للحياة اليومية⁵.

إن هذا التقرير يسعى لتقديم مسح استقصائي شامل ودقيق للأنساق الأخلاقية عند كل من أفلاطون وأرسطو، متجاوزاً السطح الوصفي إلى التحليل العميق للبنى الميتافيزيقية والسيكولوجية التي تستند إليها هذه الأخلاق. سنتقل من تشریح النفس الثلاثية عند أفلاطون ونظريته في العدالة، إلى تحليل مفهوم الحكمة العملية والوسطية عند أرسطو، وصولاً إلى الأثر العميق والحيوي الذي تركه هذان النسقان في الفلسفة الإسلامية، التي لم تكتفِ بالترجمة والشرح، بل قامت بعملية "تمثل" و"إعادة إنتاج" إبداعية عبر فلاسفة عظام كالفارابي وابن مسكويه وابن رشد⁸.

الجزء الأول: الفلسفة الأخلاقية عند أفلاطون: جدلية النفس والمثل والمدينة

لا يمكن فصل الأخلاق عند أفلاطون عن مشروعه الفلسفي الكلي الذي يدمج الميتافيزيقا (علم الوجود) بالإبستمولوجيا (نظرية المعرفة) بالسياسة. فالخير الأخلاقي ليس مجرد قاعدة سلوكية، بل هو حقيقة وجودية موضوعية. إن فهم الأخلاق الأفلاطونية يتطلب الغوص في ثلاث ركائز أساسية: سيكولوجيا النفس البشرية، وميتافيزيقا المثل، والتطبيق السياسي للعدالة⁴.

سيكولوجيا النفس: التشریح الثلاثي والصراع الداخلي

يقدم أفلاطون، خاصة في محاورات المرحلة الوسطى مثل "الجمهورية" و"فيدروس"، تصوراً معقداً للنفس البشرية يتجاوز النظرة الأحادية. يرى أفلاطون أن النفس ليست كتلة واحدة متجانسة، بل هي ساحة صراع بين قوى ثلاث متميزة، لكل منها طبيعتها، ووظيفتها، وفضيلتها الخاصة. هذا التحليل السيكولوجي هو حجر الزاوية في فهمه للرزيلة كمرض وللفضيلة كصحة⁴.

أ. القوة العاقلة: (Logistikon) القيادة والحكمة

يمثل العقل الجزء الأسمى والإلهي في النفس البشرية. وظيفته ليست مجرد الحساب المنطقي، بل "التعقل" وإدراك الحقائق الكلية والمثل. يقع العقل في صراع دائم لتوجيه النفس نحو الخير الحقيقي بدلاً من الخيرات الظاهرية. فضيلة هذا الجزء هي "الحكمة" (Sophia)، وهي القدرة على رؤية ما هو صالح للنفس ككل وللمجتمع، وليس لجزء دون آخر. عندما يسود العقل، تتحقق السيادة الشرعية في "مملكة النفس"⁴.

ب. القوة الغضبية: (Thymoeides) الحماسة والشجاعة

هذا الجزء هو مقر العواطف النبيلة كالغضب، والحماسة، والطموح، والشعور بالكرامة. طبيعته مزدوجة؛ فهو ليس عقلاً خالصاً ولا شهوانياً خالصاً، بل هو "الحليف الطبيعي للعقل". وظيفته الدفاع عن النفس وعن المبادئ التي يقررها العقل. فضيلته هي "الشجاعة" (Andreia)، وهي الثبات في مواجهة الألم والمخاطر طاعةً لأوامر العقل. انحراف هذا الجزء يؤدي إلى التهور أو العجرفة، بينما اعتداله يضمن القوة التنفيذية للقرارات الأخلاقية⁴.

ج. القوة الشهوانية: (Epithymetikon) الرغبة والعفة

الجزء الأكبر والأكثر كثافة في النفس، ومقر الرغبات البيولوجية الأساسية (الطعام، الشراب، الجنس). يتميز هذا الجزء بأنه غير عقلائي بطبعه، ويسعى للإشباع الفوري دون نظر للعواقب. فضيلته هي "العفة" أو "الاعتدال" (Sophrosyne) "ومن المهم ملاحظة أن العفة عند أفلاطون ليست "قتل" الشهوة، بل "تنظيمها" وقبولها طواعية لسيادة العقل. الرذيلة هنا هي "الشه" أو "الفجور"، الذي يحدث عندما تتمرّد الشهوة وتستعبد العقل والغضب لخدمة نزواتها⁴.

العدالة كهارموني (انسجام) وجودي

من خلال هذا التقسيم، يبنى أفلاطون تعريفه الثوري للعدالة (Dikaiosyne) في الفكر اليوناني التقليدي، كانت العدالة تُفهم غالباً كسلوك خارجي (إعطاء كل ذي حق حقه). أما أفلاطون، فينقل العدالة إلى الداخل، جاعلاً إياها "حالة للنفس" قبل أن تكون فعلاً اجتماعياً. العدالة هي "الانسجام الداخلي" الذي يتحقق عندما يقوم كل جزء من أجزاء النفس بوظيفته الخاصة دون التدخل في وظائف الأجزاء الأخرى⁴.

• الإنسان العادل هو الذي لا يسمح لشهوته أن تقوم بدور العقل (فتفقد حياته نحو المذات)، ولا يسمح لغضبه أن يطغى (فيصبح عدوانياً).

• العدالة هي "الصحة النفسية" الشاملة التي تضمن وحدة الشخصية. الظلم، بالمقابل، هو "مرض" وفتنة داخلية وتمزق.

• من هنا يحل أفلاطون المعضلة السقراطية حول "هل العادل سعيد؟". إجابته هي نعم، بالضرورة، لأن السعادة هي نتاج هذا الانسجام الداخلي، بينما الظالم شقي بالضرورة لأنه يحمل "حرباً أهلية" داخل نفسه، مهما امتلك من سلطة أو ثروة¹⁵.

ميتافيزيقا الخير: الصعود من الكهف إلى الشمس

تتميز أخلاق أفلاطون بأنها "أخلاق مطلقة" تستند إلى حقائق وجودية ثابتة هي "المثل" (Forms/Ideas) في قمة عالم المثل يتربع "مثال الخير" (The Form of the Good).

في تشبيهه الشهير في "الجمهورية"، يقارن أفلاطون مثال الخير بالشمس في العالم المرئي⁶:

• كما أن الشمس هي علة الرؤية وعلّة الوجود والنمو للكائنات الحية.

• فإن "مثال الخير" هو علة المعرفة (الحقيقة) وعلّة الوجود للمثل الأخرى وللأشياء.

لذلك، فإن المعرفة الأخلاقية ليست مجرد معرفة بالقواعد، بل هي "رؤية عقلية" للحقائق المطلقة. الفيلسوف هو الشخص الذي استطاع، عبر التدريب الجدلي والرياضي الطويل،

أن يحرق نفسه من "كهف" الظلال (العالم المحسوس المتغير) ويرتقي ليدرك مثال الخير. وبما أن "الفضيلة هي المعرفة"، فإن من يدرك الخير الحقيقي لا يمكن أن يختار الشر. الشر عند أفلاطون هو نتاج "الجهل"، وهو ليس مجرد نقص في المعلومات، بل هو عمى في الروح عن رؤية الترتيب الصحيح للقيم⁴.

التطهير (Katharsis) والزهد الفلسفي

في محاورات أخرى مثل "فيدون (Phaedo)"، تكتسب أخلاق أفلاطون طابعاً زهدياً صارماً (Asceticism). يُنظر إلى الجسد هنا بوصفه "قبر النفس" أو سجنها، ومصدر كل الشرور والشهوات التي تعيق العقل عن رؤية الحقيقة.

- الحياة الأخلاقية تصبح "ممارسة للموت (meletê thanatou)"، أي محاولة دائمة لفصل النفس عن الجسد، ليس بالانتحار، بل بالكف عن الاستجابة لنداءات الجسد الحسية¹¹.
- التطهير هو عملية تنقية العقل من تشويش الحواس، لكي يتمكن من الاتصال بالحقائق الخالدة. هذا البعد الروحي العميق في الأفلاطونية كان له أثر بالغ لاحقاً في التصوف الإسلامي والمسيحي⁸.